الفصل الثامن
المدينة الخيّرة

كانت زخات المطر الأولى التي هطلت في اليوم الثالث والعشرين من عام ١٩٣٠م بمثابة مؤثر على توقف وتعطل عمل الحكومة في الطائف. وفي اليوم التالي تحرك موكب سيارات ابن سعود على الطريق باتجاه الرياض وجاء ذلك بعد أداء صلاة الجمعة في جامع ابن عباس، وبعد تناول وليمة الغداء التي قدمها الحاكم النائب في الطائف على شرف الملك وأسرته. وفي اليوم الخامس والعشرين توجه الملك بنفسه وبرفقته الأمير فيصل ومعهما عدد من أفراد الأسرة إلى مكة. كنت قد أعددت ترتيباتي للسفر إلى مكة على ظهر حمار لأسلك طريق الهدا الذي لي خبرة سابقة به. كانت الغيوم القليلة تحجب أشعة الشمس أحياناً، كما أن الجبال التي غشتها مياه الأمطار كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس.

عندما وصلنا إلى منطقة بير العسكر وجدنا جيش من القردة تسير شرقاً، كما تسير على منتصف المنحدر الجبلي الذي كان على يميننا. وكان يقودها اثنان من كبار القردة اللذان كانا بمثابة الراعي الذي يدفع بحريمه وأطفاله ويراقب بين الحين والآخر تقدم مسيرنا على ظهور الحمير. كنا نسمع صراخ هذين القردين الموجه إلى جماعتهما وليس ضدنا؛ وذلك لأن القردة تعلم بأن الجنس البشري أناس مسالمون لا يعتدون عليهم إلا حين يدافعون عن بساتينهم ومحاصيلهم من عبث القردة.

وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى مفترق طرق يقود أحد شعبه إلى منطقة دار البيضاء وهي القرية الرئيسة في وادي محرم. وقال لي أحد المرافقين: كان

المفروض أن يشكل ذلك التقاطع جزءاً من طريق السيارات المباشر بين مكة والطائف. ولا يزال ذلك الحلم وبعد ربع قرن من الزمن حلم المستقبل. وربما يمر ربع قرن آخر قبل أن يصبح ذلك الحلم حقيقة. وإلى أن يتحقق ذلك سيستمر الناس باستعمال الطريق البديل والممتد حتى أعالي وادي اليمانية في إنهاك وتخريب السيارات والشاحنات التي تسافر باستمرار وكدح بين هاتين العاصمتين.

لم نتوقف في وادي محرم لكننا توقفنا لمدة نصف ساعة في قمة مرتفع كرا الصغير الذي يقع على مسافة قريبة وراء وادي محرم. وكان غداؤنا هناك من فاكهة السفرجل والرمان. تناولنا الغداء ونحن نرقب المرتفعات المجاورة، والغيوم السوداء التي على ما يبدو صبت حمولتها على مدينة الطائف. توازنت مصاطب أشجار المشمس والتين والكمثرى مع أحراش أشجار العرعر الصنوبرية على منحدرات الصخور البركانية المنتشرة حول قرية الكُمَّل التي كانت منازلها المبنية من أحجار الصوان الأحمر غير واضحة؛ لأنها مأخوذة من التلال نفسها التي تقع خلفها. وبعد مسير نصف ساعة وصلنا إلى الهدا، وهناك وجدنا فندقاً صغيراً يقال له (نزل الأسد). قدم لنا صاحبه علي بن هاجم غرفة لنقضي بها ما تبقى من تلك الليلة. وعلي بن هاجم هذا شاب وديع من جماعة بني صخر سبق له وأن زار مكة والطائف ولكنه لم يزر جدة أو المدينة أو حتى شواطئ البحر. ويقول بأنه ينتمي إلى قبيلة بني صخر في الأردن، وأخبرنا عن رجل من تلك القبيلة كانت القوات السعودية قد أسرته في الغارة التي شنتها عام ١٩٢٤م وأحضرته إلى الحجاز. وقال بأن ذلك الرجل ينتمي أيضاً إلى قبيلة قريش التي تعد جماعة بني صخر في الطائف جزءاً منها والتي هي في حد ذاتها فرع رئيس من قبيلة ثقيف[1] وهي أنبل

(١) يبدو أن المؤلف قد أشكل عليه تكرار هذين الاسمين؛ لأن بني صخر الذين من صخر قريش ويسكنون في الطائف وما حولها، غير بني صخر المعروفة في الأردن.
انظر عن ذلك: الشريف محمد بن منصور، قبائل الطائف وأشراف الحجاز، ط١، ص٧٠، وحمد الجاسر جمهرة الأسر المتحضرة جـ١ / ص٤٣٩ .

العشائر العربية. وبعد أن تناولنا البيض المقلي ثم تبعناه بالشاي لينزل إلى معدتنا، مشيت إلى حافة الانكسار الصخري لأقضي بعض الساعات في التأمل بذلك المشهد وغروب الشمس. كانت منحدرات الجبال تنساب على شكل نسق إلى أن تصل إلى سفوح مناطق مكة التي كان يجثم خلفها سهل تهامة الموحش المقفر. وخلف ذلك، وتحت أشعة الشمس التي حجبتها الغيوم الكثيفة فوق جبل كبة تداعى إلى ذاكرتي اسم يمكن أن أطلقه على التموجات المحيرة التي لم أكن أعلم سببها والتي امتدت على شكل جماعات تعكس بريق الفضة والذهب، ولكنني سرعان ما أدركت أنها لم تكن سوى رقائق سطح ماء البحر.

وباتجاه الجنوب خلف معاقل جبل كبرا العظيمة كانت السماء تصب ببركاتها على أعلى قمم جبال الحجاز، وفي الأسفل كانت أشعة الشمس تشرق بين الحين والآخر على حقول منطقة شداد التي غمرتها مياه الأمطار، ومما زاد من جمال المشهد أغاني الرعاة الذين كانوا على ظهور الحمير وهي تصعد إلى الأعلى مع ارتفاع الجبال. وهناك في آخر البحر بدأت الشمس تغوص في البحر وكأنها طبق صيني مصنوع من الذهب الخالص. تحول لون السماء من الأزرق الشاحب إلى اللون البرتقالي الداكن، عندها استدرت لأنادي الموظف الأسود الذي كان يعمل في مقصورة الهاتف على قمة ذلك الجبل، دعوته ليتناول طعام العشاء معنا وطلبت منه أن يؤمن لي اتصالاً هاتفياً مع جدة. قدم لنا مضيفنا طبقاً رائعاً من الأرز والدجاج لكنه لم يصدق بأنه كان بإمكاني مشاهدة البحر. وأثناء تناولنا الطعام ظهرت سلحفاة ضخمة متوحشة بها جوع قاتل شرس، وبدأت تخطف أي شيء يمكنها الوصول إليه لكنها اكتفت بالتهام الخبز المعد من غير خميرة. ويقال: إن تلك السلحفاة هي هجين بين أب تركي يقال له (أنجورا) وأم من مناطق محلية.

وفي صباح اليوم التالي سلكنا الطريق الأسهل وهو طريق الجمال ووصلنا إلى قرية الكرّ حيث استرحنا وقدمنا الماء والفصة والتبن للحمير التي كانت معظمها مزينة بنقوش من الحناء. . ويحتمل أن تكون الحناء قد وضعت على ظهور بعضها علاجاً لبعض التقرحات. تابعنا المسير وسرعان ما وصلنا إلى نقطة التقاء واديين صغيرين شديدي التحدر. كانت تلك النقطة تشكل الجسم الرئيس لوادي نعمان وكانت سيارتي موجودة هناك لتقلنا إلى قرية شداد. وعند وصولي إلى مكة قضيت يومين في ضيافة عبدالله الفضل -رئيس مجلس الشورى- وفي غضون ذلك بدأت البحث عن سكن خاص بي. بعدها ذهبت إلى جدة لأسكن في المنزل رقم ٧٢ في شارع جرول بالقرب من حدائق البلدية ومن مقر إقامة وزير المالية. وهكذا وفي اليوم الأخير من شهر أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٣٠م أصبحت من أهالي المدينة الخيرة وبقيت على تلك الحال مدة ربع قرن.

في تلك الأيام كانت الحياة سهلة وبسيطة، وبالنسبة لي شخصياً يمكن أن أقول: إن اهتمامي كان منصباً بالدرجة الأولى على أمور الدولة والتي كتبت عنها الكثير في كتابي «الذكرى العربية الذهبية». لم يكن منزلي بالشكل الذي أرغب، فلم تكن له حديقة، وكان سكناً مؤقتاً إلى أن أجد منزلاً أفضل. في الواقع كان في ضاحية جرول العديد من المنازل الجميلة، كما كان العديد منها أيضاً في منطقة الهدا المجاورة لها من الشمال. والواقع كانت منطقة جرول تعد الحاضرة الأم، لكن وجود الحكومة في كافة أرجائها سبب ضغطاً كبيراً على كل وسائل الراحة والترفيه والتسلية. حدثت تلك الأمور منذ أن طرأت عليها طفرة التوسعة العمرانية الرأسية التي امتدت إلى ما وراء حدود مكة. ويحد موضوع توفر المياه من قدرتها على التوسع في أي اتجاه لكن الحكومة أولت هذه المشكلة العناية اللازمة، والفضل

في ذلك يعود إلى الجهد الجبار الذي بذله عبدالله بن سليمان. ويمكن أن يقال: إن الوضع أصبح بشكل عـام مرض على الرغم من اتساع رقـعة المدينة. وقع ناظري على منزل جميل فيه حديقة رائعة، وكان ذلك مقابل المنزل الذي أسكنه. اغتنمت الزيارة التي قام بهـا شاعر البلاط الملكي أحمـد الغزاوي إلى منزلي وطلبت منه أن يدعمني في جهودي للحصول على ذلك المنزل. وعدني أن يفعل كل ما في وسعه لدرجة أنه سيـهجو كل شخص يمكن أن يقف في طريقـه، لكنني لم أحصل على ذلك المنزل؛ لأنه كان -على ما يـبدو- قد خصص ليكون مقـر سكن أطباء عينوا على وظيفة (طبيب خاص للملك). كـان من السهل والممتع تدبير الأمور في بيت فارغ كلياً من الأثاث. وكانت المسألة في أحد جـوانبها بسيطة فلم أكن بحاجة إلى كراس أو طاولات أو أسـرة: كان الناس يعيـشون (على الأرض) وكانوا يفـرشون أرضية الغـرف بحصر من سعف النخيل مـساحة الواحدة منها ١٦٠ قدمـاً مربعاً، وتبـاع بثلاثة ريالات ونصف. جـاء المقـاول وكان رجـلاً أسود، وقـاس المساحـة المطلوب تغطيتها فـبلغت ٢٤٣٥ قدماً مكعباً، وقال بأن تكلفتهـا تصل إلى خمسة جنيهات إسترلينية وربع الجنيه. وبعدها كان عليَّ تأمين الأواني الفخارية والسكاكين والملاعق وأدوات المطبخ الأخرى.. اشتريت كافة تلك الاحـتياجات بسعر رخيص جداً. وعندما ذهبت إلى القصر في وقت لاحق من ذلك اليوم طلب مني الملك أن أقدم له قائمة بالأشياء المنزلية التي أحتـاجها ليؤمنها لي من الموجودات الخاصة به. فعل الملك ذلك الشيء لأن من عادته دائـماً السؤال عن راحة ضيوفـه وأصدقائه. بدت الدهشة على الملك عندمـا قلت له بأنني أمنت كل أثاث منزلي لكن يمكن أن أطلب فيـما بعد رفـوفاً للكتب وبعض قطع السـجاد ومـا شابه ذلك. زرعت في حديقة منزلي اثنتي عشـرة شجرة ورد سبق أن جلبتها معي من الهـدا، واستقر بي

الوضع لأعيش عيشة جيراني الذين كان بينهم العديد من أصدقاء الأيام الخوالي في نجد. كان محمد بن عبدالرحمن الفضل واحداً منهم، وكان يمتلك منزلاً يطل على الحرم الشريف. كان على سطح الطابق الأول من منزله شرفة محاطة بصف من الأعمدة. وكنت أزوره باستمرار وأصلي صلاة الجماعة معهم: كنا نصلي المغرب والعشاء في الشرفة، أما الصلوات الأخرى في النهار فكنا نصليها داخل غرفة الجلوس بعيداً عن حر الشمس في الخارج. وكانت هذه البيوت التي تقام بها الصلوات بمثابة معالم مشوقة عن نمط الحياة في مكة، كما أنها كانت تعد جزءاً مكملاً لامتداد الحرم؛ لأنه بإمكان سكان هذه البيوت أن يصلوا في مصلاهم الخاص دون أن يخالفوا تعاليم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. شملت تلك المنازل كامل الفناء الخارجي المحيط بالحرم. وبالطبع كان الناس يرغبون في استئجارها وكانت أجورها مرتفعة. كان الملك قد حجز واحداً من أكبر تلك المنازل لاستعماله الشخصي ولاستعمال أبناء الأسرة الحاكمة مع حاشيتهم وخدمهم. وفي أي وقت أكون فيه في مكة أصلي الجمعة في مصلى ذلك البيت الذي تطل نوافذه على أعمدة ساحة المسجد الحرام.

توجب على أصحاب تلك البيوت، أو على سكانها أن يقوموا بإكرام واستضافة العديد من الزوار وخاصة في أيام الجمع حيث كانوا يقدمون القهوة والمرطبات قبل كل صلاة. وقد حدث في إحدى المرات أن كان من بين هؤلاء الضيوف تاجر من الكويت يدعى عبداللطيف، وكان هذا التاجر قد استشعر آفاق عمل مربح في الجزيرة العربية الجديدة. حدثت بيننا معرفة في الأيام الماضية كما أنه كان معروفاً لدى وجهاء الطائف. ومن بين النشاطات التي كان يقوم بها نشاط يتعلق بتجارة العبيد، وكان قد وعدني بأن يأخذني بجولة على المناطق التي تتم بها تجارته. ومما

لا شك فيه أنه كان يأمل أن يكون له ذلك الشخص زبون جيد. وفي أحد أيام شهر نوفمبر (تشرين الثاني) أخذني مع شخص من كبار سماسرة هذه المهنة وتوجهنا إلى حي متسخ يقال له حي المسفلة ويقع إلى الجنوب من الحرم الشريف. وخلف سوق المحروقات اجتزنا أخدوداً للمياه غير الصحية ودخلنا منزل رجل من بخارى كان يعمل مع شقيقيه في مهنة الطوافة أو إرشاد الحجاج الذين يأتون إلى مكة من مناطق وسط آسيا. وإلى جانب ذلك العمل كانا يقومان بدور الوسطاء في التصرف بالعبيد.

قادنا أحد الأشخاص إلى غرفة مريحة في الدور الثالث مفروشة أرضيتها بسجاد ثمين وكانت نوافذها تطل على صخور الوادي الانكسارية، وكان على نوافذ تلك الغرفة حديد مشبك. وبعد أن انتهى الهمس الذي دار بين عبد اللطيف وأحد أخويه أفصحوا بأن هناك زبائن آخرين جادين في طلب الفتيات اللاتي كنا نريد مشاهدتهن. في تلك الأثناء دخلت علينا فتاة على الأرجح أنها يمنية تبلغ من العمر سبعة عشر ربيعاً لها وجه مبتسم وضاح. جاءت وهي تحمل صينية عليها فناجين قهوة وبدأت في تقديم القهوة إلينا. كانت حسنة المظهر لكنها ليست بالجميلة وكان طولها حوالي خمسة أقدام وهي معتدلة القوام إذ كان بإمكاني أن أستشف ذلك من الثوب الواسع الذي لفته حولها عدة لفات، وأطرافه الخضراء تنجر ورائها. ابتسمت لنا ابتسامة عريضة فبانت عن أسنان جيدة لكنها غير متناسقة. تولى عبداللطيف عملية طرح الأسئلة على الفتاة وطرحها بصرامة رجل عجوز مجرب. علمنا أنه قبل خمس سنوات تم إحضارها من ميدي على الساحل اليمني إلى جدة. سألها عبدالله: متى بلغت. هل لك أية أطفال، وهل سبق لك أن أجهضت؟ إضافة إلى أسئلة أخرى عرفنا منها أنها تجيد الطبخ والغسل وكي

الملابس وأن تعتني بالمنزل بشكل عام. كانت تجيب على ذلك النوع من الأسئلة بابتسامة جريئة دون أن تبدو عليها دلائل الإحراج. وبعد أن تجولت واستدارت أمامنا غادرت الغرفة. عندها أخبرني كبير الأخوة بأن سعرها ١٧٥ جنيهاً إسترلينياً. كان ذلك السعر مرتفعاً في تلك الأيام.

أما الفتاة الثانية فكانت شبه هبوط مفاجيء في النوعية: كانت أصغر من فاطمة بكثير، وأكثر سواداً منها وكانت أيضاً من اليمن، خجولة جداً وخرقاء غير لبقة. لكننا لم نطل اختبارها لأنني أخبرت عبد اللطيف بضرورة رحيلنا. ويبدو أن التاجر أدرك بأنني غر قليل الخبرة، لكن الشيء الذي لم يدركه أنه لم يكن بنيتي أصلاً شراء أي من الرقيق، وأنني قدمت فقط للتعرف على الكيفية التي تتم بها الأمور. تركته ولم أشرح له النقاط خوفاً من أن يعتقد بأنني أهدرت وقته. بعدها أخذني عبد اللطيف إلى منزل آخر متواضع وجدير بالازدراء في حي الشعب. وهناك عرض علينا فتاتين حبشيتين تدعى الأولى بشرى، وتبلغ من العمر حوالي ثلاثة وعشرين عاماً ولها شفتان غليظتان وبشرة سوداء وجسم ممتلئ معروف عنها بأنها تتمتع بكل مؤهلات ربة المنزل. ولم تكن تلك الفتاة جذابة على الإطلاق علاوة على أنها كانت خجولة وجبانة وكانت حريصة على أن لا تكشف الغطاء عن شعرها. عرض ذلك السمسار أن يبيعها بمئة وعشرة جنيهات. أما الثانية فكانت بمثابة طفلة غير ناضجة جسمها الضعيف يثير الشفقة. عرض السمسار أن يبيعها بخمسة وتسعين جنيهاً. وخلال الأسئلة التي طرحناها على الفتاتين كان التاجر العجوز يتدخل بين الحين والآخر مادحاً بضاعته وموبخاً الفتاتين بشيء من العصبية خاصة عندما كان يصدر عنهما جواب غير مرض. ومما لا شك فيه أنه أصيب بخيبة الأمل عندما هممنا بالانصراف دون مجادلته بالسعر المطروح.

اكتسبت الخبرة التي كنت أريدها ولم أزر تلك الأماكن بعد ذلك أبداً. وفي الواقع وبعد بضعة أيام زرت دكا أو سوق العبيد. ولم يكن هناك تشابه بينه وبين الصور التي ترسمها أقلام الصحفيين وكاميرات صانعي الأفلام. كان ذلك السوق في نهاية زقاق مسدود في حي فقير من أحياء المدينة. حتى إن الرجل المسؤول عن الفتيات لم يبد أي جهد يتظاهر من خلاله بأن بضاعته جيدة تستحق الشراء. كانت بضاعة ذلك الرجل مؤلفة من عائلة واحدة: رجل بائس تبدو عليه التعاسة التي لا تقل في حدتها عن التعاسة الواضحة على وجه زوجته وأطفاله الثلاثة من أعمار مختلفة. كانت تلك الأسرة معروضة إما للبيع مع بعضها أو للبيع بشكل فردي. ويبدو أن سيد أو مالك هذه الأسرة كان يحاول أن يريح نفسه من مصاريف إطعامهم. كان عنصر الرحمة في الأوساط التجارية في الجزيرة العربية شيئاً نادراً أو معدوماً.

كانت تلك كل تجربتي في مجال تجارة الرقيق في مكة. وكانت تلك التجارة تستمد مصادرها من كلا جانبي جنوب البحر الأحمر. أغلق سوق جدة لكن عمليات البيع والشراء كانت تتم في البيوت بشكل سري وخفي. وفي مرحلة من المراحل ازدهر ذلك السوق الذي كان في ثلاث مناطق ريفية لا يُرحب بدخول الأوروبيين إليها.

كانت الرياض تؤمن ما تحتاج إليه من رقيق من كلا جانبي الطرف الشرقي من الخليج العربي، حيث كان خليج عمان المحطة الأولى التي ينزل بها الرقيق القادمون من إيران وبلوشستان، ومن ثم يرحلون إلى الداخل باتجاه الأحساء ومناطق نجد. وهناك ما يثبت أنه في الجانب الإيراني من الخليج كان رؤساء الرقيق

والإماء من القرى يتخلصون من فائض الناس ويقدمونهم إلى تجار لهم صلات مستمرة مع المشترين للرقيق في الجزيرة العربية. كان أهالي نجد يرغبون في الرقيق القادمين من مناطق البلوش. وقد سمعت في الأيام الأخيرة عن قصة قيام رجل من القبائل التي تسكن في المناطق المرتفعة بجوار الطائف ببيع ابنته. كما أن هناك حالات مماثلة لهذه القصة لكن من الصعب الإتيان بالأدلة والبراهين.

من الناحية النظرية فإن المتاجرة بالرقيق شيء تعمل الشريعة الإسلامية على زواله من الأمة الإسلامية بطرق متنوعة، لكن كان الناس يزاولونها وكأن شيئاً لم يكن خاصة بعد إتمام عملية البيع. على أية حال حدثت في الأيام الأخيرة بعض التطورات التي شملت بلدان (الهلال الخصيب) والمناطق المجاورة. أصبحت الأجور مرتفعة تغري فتيات ونساء تلك الدول بالقدوم إلى الجزيرة العربية للعمل بصفتهم ممرضات وإداريات وفي مهن أخرى. لكنهن كن يكتشفن -وبعد فوات الأوان- أنه تم اختيارهن بالتركيز على مظهرهن أكثر من مؤهلاتهن. وجاءت النتائج الحتمية المترتبة على مثل تلك الأوضاع.

السرايا هي كلمة مرادفة لكلمة قلعة في اللغة العربية، وكل ما يحدث في داخلها هو أمر خاص لا يعني أحداً. كان بعض كبار الرسميين وكبار التجار في الجزيرة العربية يزاولون هذه المهنة بطريقة غير مقبولة في الشريعة الإسلامية، لكن يبدو أن أرباح وعائدات هذا النشاط كانت جيدة بما يكفي أن يبرر المجازفة في العقاب الأبدي. إن الطريقة الوحيدة لمنع تلك الممارسات هي تدخل حكومات البلدان التي يتم فيها التعاقد مع الفتيات للتدقيق في حقيقة وضع الجهة الطالبة للعمالة، وبالتالي لتحمي المستخدمات بالطرق الدبلوماسية من التحرش بهن أثناء عملهن في السعودية. ومن المحتمل أيضاً أن تكون بعض الفتيات على علم مسبق

بنمط الحياة التي تنتظرهن، ومع ذلك يقبلن به، لكن دلت التجربة على أن هناك العديد من الفتيات البريئات اللاتي وقعن ضحية مزاولة هذه النشاطات غير الشرعية إسلامياً. وحدث أن كانت بعض هذه الحالات مروعة فعلاً.

ومما لا شك فيه أن كل هذه الأمور لم تكن واردة في الجزيرة العربية عام ١٩٣٠م. لقد تم تطهير مكة وجدة من الخبائث لأنهما عرفتا بالفساد الخلقي الذي خلفه الأتراك والأشراف. وأصبحت الجرائم التي تقترف بشكل مخالف للشريعة الإسلامية تلقى أشد العقوبات. ومن ناحية أخرى وفي ظل حدود واضحة ومحددة لم يكن لابن سعود أن يتهاون في أي تدخل في الدين أو أي نقد للممارسات المنصوص عليها في الشريعة الإسلامية: ومثال ذلك: موضوع العبودية، واتخاذ المحظيات أو الخليلات، وتعدد الأزواج، والطلاق، وما إلى ذلك من أمور أخرى. حكم ابن سعود شعبه بالشريعة الإسلامية ولا بد أن تكون الشريعة هي القانون الذي يحكم على أعمالهم. كان ابن سعود نزيهاً وثابتاً على الإيمان الراسخ بأن كل ما فرضه الله في القرآن لهداية البشرية هو أمر ملزم مهما فكر أو اعتقد الضالون. وذلك يشمل أمور التحريم كما يشمل أمور الفسق. إنه من الغريب حقاً التفكير على نطاق واسع، بأن الأشياء التي سمح بها الدين الإسلامي هي أشياء محرمة أو بغيضة من منظور العالم الغربي، كما أن الأشياء التي تسمح بها العقيدة المسيحية أو الممارسات في العالم الغربي هي محظورة وممنوعة تماماً في الديانة الإسلامية. كان ابن سعود صادقاً مع نفسه، وصادقاً مع العالم، وصادقاً مع ربه.. وإذا حدث أن اقترف ابن سعود سيئة ما، فمن الصعب تذكر واقعة مادية واحدة بذلك الخصوص.

أما الجيل الصاعد فهو جيل مـختلف. فهو يأثم ويرتكب الخطيئة وهو على علم بما يفعله إذ أصبح بتصرفه ذلك يجمع بين محـاسن الإسلام ونواحيه الإيجابية وبين مفاتن وفسوق الحضارة الغربية. لكن هذا تصرف منفر في الصميم، فهو لا يشجع القيام بأي عمل لا ينجم عنه ربح مادي يمكن بالتالي إنفاقه في ملذات لافتة للنظر.

حدثت لي تجـربة في عام ١٩٥٣م توضح الطرق المتـبعة في ذلك الأمـر. كان وزير المالية قـد طلب مني أن أرشد أحـد الجيولـوجيين في حملة اسـتكشافـية في البلاد، وطلب مني أيضاً أن أقدر طول الجولة ومـقدار التكلفة. اقترحت بأن زمن الجولة يمكن أن يستغرق شهـرين، ويمكن أن تصل النفقات إلى خمسة آلاف ريال. وفعـلاً وضع ذلك المبلغ تحت تصرفي. اسـتغـرقت الحملة ثلاثة شـهور، وبلغت التكلفة ٥٨٠٠ ريال. وقلت بأنه ليس من الضروري المطالبة بفارق المبلغ وعليه لم أقدم أية حسابات تفصيلية. وبعد مـضي عام وعندما تحدث معي الشخص المسؤول عن ذلك الحدث كررت له الحقائق نفـسها. عندها أكد لي بأن الحكومة ترغب في دفع كـامل الفاتورة. ومـر على ذلك الحديث حـوالي العام، بعـدها وطلب مني مجـددا تقديم كـشف بالحسـابات. وفعـلاً قدمت كـشفـاً لكن لم يدفع لي على الإطلاق المبلغ المطلوب وكان ٨٠٠ ريال. السـؤال هنا ماذا حدث للمـبلغ؟ المسألة ليست بحاجة إلى جواب أو شرح.!

وأقول مجدداً بأن هذه التطورات سيشهدها المستقبل البعيد الذي لا يمكنه إلا أن يلقي بظلاله على منحـاه الخاضع للتـقلبات المتـواصلة مثل منحى الشـمس الآيلة للغروب. حتى في الأيام الخوالي، وعلى صعيـد محدود جداً بالمقارنة مع الأموال التي شهـدتها الأيام الخاليـة، ظهرت مؤثرات وهمـسات تفيـد بأن الأمور لم تكن تجري على مـا يرام لا على الطريقة التي كـان يتطلع إليهـا فاتحو مناطق الحـجاز

عندما تراجع نظام الملك حسين الجشع أمام فضيلة السعوديين المتأججة. بمعنى أن أهالي المناطق المقدسة كانوا ينعمون بملء جيوبهم بالمنح والرشاوى التي كانوا يحصلون عليها من مناصبهم الإدارية. وقد استمرت العقلية التجارية لسكان مناطق الجزيرة في فتح عيونها على السبل والطرق الحكومية المتعددة التي يمكن من خلالها معرفة مجرى المكاسب البسيطة التي كانت تصب في جدول عائدات الدولة المتواضع. ومن أجل تقديم تفسير لهذا التحول الذي طرأ على كافة الأعمال الهامة التي تحقق الثراء السريع أعرض حادثة بسيطة وقعت في جدة: عثر في أحد خزانات مياه الشرب على أفعى ماء معروف بأنها تتواجد بكثرة في مياه البحر الضحلة إذ كانت الطبقات الفقيرة تعتمد عليها بصفتها غذاء رئيساً. وعليه تم اتخاذ قرار صائب بأن المياه لم تكن صالحة للاستهلاك الآدمي. وعليه أهدرت تلك المياه وقيدت تكلفتها على مصاريف أجهزة التحلية. قامت وزارة المالية بالتحقيق في تلك المسألة ووجدت في تقرير المهندس البريطاني المسؤول أن مياه الخزانات تلك كانت مأخوذة مباشرة من مياه البحر وأنها وضعت في الخزانات دون تحليتها وتم تشغيل المحركات لتبريدها. وتبين أن المدير المسؤول كان قد وضع في جيبه قيمة خمسين طن من المياه المحلاة إذ كانت قيمة الطن الواحد تصل إلى خمسة شلنات.

كانت إدارة شؤون المواصلات السمة السيئة في ذلك النظام، كما أن الممارسات التي كانت تقوم بها جهة حكومية أخرى أبطلت مفعول الجهود المخلصة التي كان يبذلها موظفو أحد قطاعات الحكومة لخدمة وسلامة وراحة الحجاج: كان قد تقرر وضع شاحنة إضافية لكل ستة حجاج مسافرين على الطريق باتجاه المدينة، وهي مسافة تصل إلى ٢٥٠ ميل. أبلغ مدير قسم التسجيل أحد المهندسين البريطانيين المسؤول عن سلامة خدمات وصيانة تلك العربات بأن مسؤوليته تنحصر فقط في

سلامة الشاحنة الاحتياطية، وطلب منه أن يوقع على وثيقة مكتوبة باللغة العربية التي لا يفقه البريطاني منها شيئاً والتي تفيد بأن القرار يقضي بوضع سبع شاحنات لخدمة كل ستة أفراد من الحجاج. وبفعل تستر المدير على تلك الجريمة سمح للشاحنات الإضافية بنقل الحجاج وتم تقاسم الأجور بين الأشخاص المشتركين في تلك الصفقة. علاوة على ذلك كان هناك العديد من المشاكل المتعلقة بتنظيم حركة مرور وسير الحجاج، إذ أسفرت حرية امتلاك وتشغيل السيارات عن فوضى بالغة، وبالتالي عن إفلاس العديد من الناس الذين توقع لهم جني الكثير من الأرباح. وكان هؤلاء الناس قد باعوا ممتلكاتهم للدخول في هذا العمل المربح. ولكن كل ما جنوه كان الاقتتال فيما بينهم؛ ولذلك وجدت الحكومة نفسها مضطرة للتدخل ومنع السيارات من خدمة الحجاج إذ تم إنشاء جهة واحدة مسؤولة عن نقل الحجاج تحتكر عملية تأمين مواصلاتهم. أسفر العجز الإداري وأمور إضافية أخرى عن انهيار تجربة القطاع الخاص المحتكر للمواصلات ونقل الحجاج. ساهمت الأوامر الصادرة عن الملك في تجنب الوقوع في الإفلاس المالي، ولو حتى بشكل مؤقت. إذ تم الاتفاق بموجبها على إعادة النظر وإعادة ترتيب الأمور وبالتالي إلغاء رغبة الدولة في الدخول في هذا المجال وفتح الطريق أمام المساهمين. أشرفت لجنة رباعية على إدارة تلك الشركة المقترحة، لكن الأمور استمرت تسير بطريقة منحرفة، وعليه تنازل ثلاثة أشخاص عن حقهم لصالح الشخص الرابع مقابل أن يحصل كل واحد منهم على خمسة بالمئة من صافي الأرباح. استمرت تلك الحالة حتى منتصف شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٠م، وفي تلك الفترة بدأ تدفق الحجاج من بلدان الشرق الأقصى. وكما هي العادة كانوا يأتون إلى مناطق الحج قبل بدء الفترة الفعلية للحج والتي تبدأ مع نهاية شهر أبريل. اعتاد هؤلاء الزوار

على قضاء ستة أشهر في البلاد وقضاء فترة طويلة في المدينة بين شهر رمضان، الذي ينبغي أن يقضى في مكة حسب التقاليد، وشهر ذي الحجة في مكة.

كان من الطبيعي أن تفكر شركة النقل في أخذ القسم الأكبر من حركة المواصلات المزعجة، لكن لاحت في الأفق عقبة غير متوقعة إذ احتج المطوفون على احتكار هذه الشركة لحركة المواصلات، ذلك لأنهم اعتادوا أن يحققوا الربح الوفير من جراء تأمين الجمال والسيارات لنقل الحجاج في الفترة التي كانت الشركات الخاصة تعمل بكامل حريتها. وبدؤوا الآن في حملة إعلامية نشروها بين الحجاج تؤكد على فائدة التنقل بالجمال وبالتأكيد على شرعيتها من الناحية الدينية والسنة النبوية. والواقع أن حملتهم حققت نجاحاً ملحوظاً وبدأت قوافل الحجاج بأعداد كبيرة من الجمال تجوب الشوارع بين مكة وجدة الأمر الذي انزعجت منه مؤسسات النقل بالسيارات. رفع الموضوع إلى الملك الذي سبق له أن نزل عند رغبة البدو في التنقل بالجمال بعد أن احتجوا على دور السيارات. وقالوا بأن السيارات تهدد باندثار الوسائل التقليدية التي تعد جزءاً مهماً في معيشتهم. والآن ومع معطيات الظروف الحالية، وجد الملك نفسه مضطراً لتشجيع حركة التنقل بالسيارات في الجزيرة العربية بشكل عام معتبراً أن ذلك التوجه أمر ضروري لا غنى عنه لتقدم المملكة. وقرر أن لا يسمح لأي شيء في أن يؤثر على قراره بهذا الخصوص. وخطوة أولى رشح أحد قادة أشراف مكة للإشراف على هذه المسألة، وذلك بالتشاور مع وزير المالية ومع رئيس مجلس الشورى. كان ذلك المرشح شخص يدعى هزاع وهو أحد أشراف وادي الليمون سبق له أن انضم إلى الملك عبدالعزيز في عام ١٩٢٢م متحدياً بذلك استبداد الملك حسين. وما حدث في الحقيقة هو أن الملك أثر بنفوذه على أعمال اللجنة ودعم موقفها ضد شكاوى

وتذمر المطوفين الذين ظهروا على أعتاب قصر الملك في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ليسمعوا من الملك بعض الحقائق التي تتعلق بتآمرهم الهادف إلى تدمير شركة المواصلات عن طريق إقحام تفسيرات غير مبررة مستقاة من القرآن. وبعدها جردوا من حقهم في العمل بصفتهم وكلاء عن شؤون الحجاج، لكن تم بين ليلة وضحاها إلغاء هذا القرار لأنهم قطعوا عهداً على أنفسهم بالتوقف عن حملاتهم العدائية. وفي ختام هذه القضية قال الملك: «إذا كان بإمكان موسم حج هذا العام أن يساعد شركة النقل في التعويض عن خسائرها عن السنوات السابقة فذلك خير، لكن إذا فشل الموسم مجدداً فسيعني ذلك نهاية عملية النقل بالسيارات، ولن يكون بوسعنا السماح لذلك بالاستمرار. وأضاف بأن سعادة ورفاهية البلاد تعتمد على استمرارها».

في أحد الأيام تركزت المحادثات في القصر على موضوع الإجراءات الضرورية لتحديث إدارة إقليم عسير التي تحولت في عام ١٩٢٩م لتصبح من أحد أجزاء المملكة، وذلك خطوة أولى نحو انضمامها إلى منطقتي نجد والحجاز اللتين تشكلان المملكة. كان قد تم استدعاء عبدالوهاب أبي ملحة إلى مكة من أجل التشاور معه. والمعروف أن أبا ملحة هذا شخصية من الطراز القديم لكن لها مكانتها.

توجهت مع الملك إلى بيت وزير المالية لإجراء المزيد من المحادثات المفصلة عن الإصلاحات التي يجب أن توضع موضع التنفيذ. كانت الرسوم الجمركية في موانئ عسير[1] على الشكل الذي فرضته حكومة الإدريسي سابقاً، وكانت تصل إلى نسبة ٨٪ من أساس القيمة المنصوص عليها في الفاتورة. وكانت البضائع التي

(١) يقصد المؤلف منطقة جازان.

تفـرغ في تلك المواني تهرب بطريـقة مـا وتصل إلى أسواق الحـجاز لتـتنافس مع البضائع التي بلغت نسبة الضريبة المدفـوعة عليها ٢٠٪. ومن أجل المصلحة العامة كان لا بد من وضع حد لهذه الحالة. وفي حين تم الاتفاق على أن ترتفع ضرائب جمارك عسـير لتصل مستقبـلاً إلى ٩٪ كما تقرر أيضاً فرض ضريبـة إضافية تبلغ ١١٪ على البضـائع التي ترسل من هناك إلى مناطق الحجاز؛ وذلك لتـصبح على قدم المساواة مع البضائع المشابهة لها التي تم استردادها إلى جدة وإلى مواني أخرى من مناطق الحجاز. تم تكليف أبي ملحـة بمهمة صعبة إذ توجب عليـه من خلالها اسـتنباط نظام يمكن أن يربح تجـار عسـير نـسبـياً وفي الوقت نفـسه ينصف تجـار الحجاز. ويمكن أن يكون هذا إجـراء مؤقتاً يؤدي في نهاية الأمر إلى إدراج عـسير بشكل كامل في النظام المالي لـلمملكة. وبعد سبع سنوات توجـهت إلى شواطئ عسـير ووجـدت تجار مـختـلف المواني يتذمـرون من الصعـوبات المفروضـة على عملهم: قـدرت الضريبـة المفروضة على كـيس الأرز الذي يزن ٧٧ باوند بثمـانية ريالات، إذ بلغت تكلفته واصل إلى الميناء ستة عشر ريالاً. كان التجار يبيعونه إلى الناس بـ ٢٥ ريالاً أي بربح بـلغ ريالاً واحداً فـقط. بدا حـقـاً أن هناك مـسوغـاً جوهرياً لتذمـرهم. لكن، وفي خلال أقل من عقد من الزمن، ارتفع سـعر كيس الأرز إلى ٢٥٠ ريالاً، ويعـود الـسـبب في ذلك للحـرب وإلـى الندرة في المواد الغذائيـة التي أصابت كافـة دول العالم. ومع ذلك لوحظ أن الناس استـمروا في شرائهم بذلك السعر كما استمروا في التذمر والشكوى.

وبعد أن انتهى من حديـثه وأشغاله مع أبي ملحة التفت عبـدالله السليمان إليَّ ليناقش مختلف القضايا التي كانت تؤرق تفكيره.

حصلت شركـتي على وكالة شركة زيت سوكونـي لبيع النفط والكيروسين في السعودية. وتم إبلاغ الـوكيل الألماني -الذي كان يحاول تأمين وكـالة له من شركة

فاكيوم- عن استحالة ترتيب مثل ذلك الأمر بسبب إتمام التفاهم حول النشاطات الإقليمية الواردة مع شركة سوكوني. كان عبدالله السليمان متلهفاً لإقناع سوكوني بعرض شروط بيع مشجعة على الحكومة وذلك في منافسة مع شركة شل الموجودة في البلاد منذ زمن بعيد. ولم يدرك عبدالله السليمان أن الشركتين توصلتا فيما بينهما إلى اتفاق يشمل كل بلدان منطقة الشرق الأوسط. كما أنهما اتفقتا فيما يخص السعودية على اقتسام السوق فيما بينهما. وفي النهاية حصل أن أثر التطور اللاحق الذي طرأ على النفط في الجزيرة العربية على مصالح كلا الشركتين. كان عبدالله السليمان مهتمًا أيضاً بتشجيع أحد البنوك في الدخول في مجال العمل في الجزيرة العربية منافسًا بذلك مختلف الجهات البريطانية التي تعمل من خلال وكالة جيلاتلي هانكي أند كمبني، وهي شركة موجودة في جدة منذ زمن طويل ولها روابط مهمة مع السودان.

كان بنك لطف الله الذي سبق أن حصل على امتياز منحه إياه النظام البائد يحاول أن يعاود ترسيخ حقوقه مع الحكومة السعودية، لكن عبدالله السليمان قال لي بأنه لا يعتقد بأن ذلك البنك كان قادراً على القيام بعمل مصرفي جاد في البلاد. واقترح قائلاً بأنه يتوجب عليَّ أن أحاول التأثير على بنك كرويت فونسيه ليفتح فرعاً له في المملكة. كما كشف عن سريرة نفسه بأن قال لي: إن الملك أصبح على علم بأنني أعيش في ظروف أو أحوال غير مريحة بعض الشيء. وقال: إن الملك كلفه شخصياً بالاعتناء بهذا الأمر؛ وعليه اقترح بأن يقدم الترتيبات اللازمة لتحويل الأرضية الترابية في المنزل الذي أعيش فيه إلى أرضية من الأسمنت، وأن يؤمن لي أيضاً الفرش المناسب. وأضاف أنه نظراً لخدماتي في السابق واستفادة الحكومة مني بشكل عام اعترض الملك على كوني أعامل بطريقة

أقل من معاملة ضيوفه الآخرين؛ ولذلك أمـر بأن يصرف لي مرتب شهري مقداره خمسون جنيهاً ذهبياً. اعترضت قائلاً بأن ذلك المرتب الشهري ليس ضرورياً، وأنه لا يمكنني قبـول مثل ذلك المبلغ. أجابني قـائلاً: إنه لا يمكنني رفض هدية الملك. كـررت أنه لا يمكنني في أي حـال من الأحـوال قبـول ذلك المبلغ. وقـال: «إذن سأدخل ذلك المبلغ في سجلاتنا الشهرية ليـبقى لك وبإمكانك سحبه والتصرف به في أي وقت تشاء». تركنا الموضوع عند تلك النقطة. أما بالنسبة لي فكانت المسألة محسومة، انتقلنا للحديث عن قضايا أخرى مختلفة، وانتهى حديثنا بأن طلب مني بأن لا أتردد في تقـديم النصح في أية مسـألة أعتـقـد أنه بإمكاني تقـديم النصح بخصوصها وذلـك لأفيده شخصياً، أو لإفادة الملك مبـاشرة. وقال: «نحن نعرف كل ما يمكن معرفـته عن الجمال لكن هناك قضايا تتـعلق بالإدارة وبأساليب العمل الغربـية والتي من الواضح أنك تعـرف عنها أكـثر مما نعـرف نحن؛ ولذلك نحن نرحب بأي نصيحة تعرضها علينا».

وكان من بين الأمور الرئيسة التي شغلت تفكير عبدالله السليمان موضوع تأمين كافة المتطلبـات الجوهرية للقصر، خاصة وأن عدد أفـراد أسرة الملك قد وصل إلى خمـسة وثمانين شـخصاً بالغـاً، إضافة إلى العديـد من الأطفال، وتلك هي نواة صغيرة نسـبياً من الناس. وكان عليه أيضاً أن يؤمن المخـازن والمعدات اللازمة لقوة يبلغ قوامها ٤٠٠ رجل كان من المفروض أن تتوجه قـريباً إلى إقليم عسير لتحافظ على الأمن هناك إلى أن يتم تثبيت الإدارة الجديدة المزمعة.

أرجأت هذه النفـقات الفعليـة أو المرتقبة والمحـسوبة من بيت مال الدولة إقـامة نظام آلي للهاتف في جـدة وكذلك في مكة، علماً بأن الكثـيرين كانوا متـحمسين لذلك المشروع. كانت المعدات الضرورية اللازمـة قد وصلت إلى جدة، كما وصل

أحد المهندسين المصريين ليشرف على العمل، وكل ما تبقى لمباشرة العمل هو أن تُخرج الحكومة تلك المعدات من الجمارك بعد دفع التكلفة المستحقة. ولسوء الحظ لم يكن في الخزينة أي نقد، والأسوأ من ذلك هو أن ما كان مطلوباً من الخزينة في المستقبل القريب كان لا بد أن يدفع وبشكل مسبق. علاوة على ذلك كان الملك قد أعلن عن نيته في زيارة الرياض في شهر ديسمبر (كانون أول) القادم وذلك يتطلب نفقات باهظة شخصية، ومبالغ كبيرة من المال.

كنا قد وصلنا إلى ما ينظر إليه عادة على أنه موسم ميت، إذ تم استنزاف عائدات الحكومة والعائدات الحاصلة من القطاع الخاص، في حين أن موسم الحج لم يكن قد بدأ بعد. كان التجار والناس على حد سواء بحاجة إلى اعتمادات مالية، كما أن شركات النقل أصبحت في حالة فقيرة جداً وليس لديها ما تستثمره في المزيد من السيارات.

لم يمض على استلام عبدالله السليمان مهام الأمور المالية للبلاد سوى عام إذ تسلم ذلك بالتحديد بعد رحيل سلفه شرف رضا العضو البارز في قبيلة الأشراف والذي كان قد دعم موقف ابن سعود خلال حملته على الحجاز في عام ١٩٢٤-١٩٢٥م. استمر عبدالله السليمان منذ ذلك الحين في العمل بصفته سكرتيراً شخصياً للملك ومستشاراً مؤتمناً على القضايا المالية والإدارية. والآن ومع تعيينه في أهم منصب في المملكة أصبح يسيطر على كل الأجهزة الإدارية، ودامت سيطرته تلك لمدة ربع قرن. وفي نهاية المطاف تعرض للكثير من النقد. ولكن مهما تكن نوعية الأخطاء والعيوب التي ارتكبها، فقد كان عبدالله السليمان الشخص الوحيد في الحكومة الذي يستحق الثناء لمحاولته تقديم ما اعتقد بأنه لخير صالح ملكه وبلاده. كان يتمتع عبدالله السليمان بميزة كبيرة، وهي كونه من أبناء

منطقة ابن سعود، في حين كانت الشخصيات الأخرى في الحكومة من الأجانب، وكان كل واحد منهم مهتم بالدرجة الأولى برفاهيته وتحسين أوضاعه الخاصة، ساعياً وراء خدمة المصالح السياسية نيابة عن البلد الذي قدم منه. وكانوا جميعاً لاجئين من نوع أو آخر يستمتعون في عمل مزدهر حصلوا عليه في هذا البلد الذي تبناهم. عندما أتوا إلى المملكة كانوا فقراء وأصبحوا الآن أغنياء لدرجة أن البعض منهم حقق ثروة طائلة. ولهذا ليس هناك أي سبب يمنعهم من أن يكونوا شاكرين ممتنين للملك الذي خدموه بإخلاص واضح. كان لكل واحد منهم آراء إدارية وسياسية خاصة به، كما كانت لهم القدرة على فرض تلك الآراء حتى على خدمهم. من المؤكد أن كرم وسخاء ابن سعود عليهم زاد في ولائهم، الأمر الذي جعلهم ينهلون بحرية من العلاوات والأجر الإضافي الذي كانوا يحصلون عليه بفعل مناصبهم رفيعة المستوى[1].

في السادس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) هطلت أمطار غزيرة فوق مرتفعات مكة جاء على أثرها سيل عارم سال في وادي إبراهيم. لكن مجرى ذلك الوادي الجاف باستمرار كان بمنزلة الشريان الرئيس لحركة المواصلات في المدينة.

تدفقت مياه السيول على شكل جداول وغطت الطريق الرئيس وحملت في جريانها بضائع وأثاث المحلات التجارية والمساكن الواقعة في تلك المنطقة علاوة على أنها جرفت أيضاً بعض الأشخاص الذين لم يتوخوا الحيطة والحذر.

أغلقت أبواب المسجد الحرام في وجه المياه الجارفة المتدفقة إلا أن المياه المتجمعة تسربت إلى ساحة الحرم من خلال شقوق وتصدعات البناء. وعندما فتح أحد الأبواب لإخراج بعض الأشخاص الذين كانوا يؤدون الصلاة بالداخل تدفقت المياه

(١) ليس الامر على إطلاقه، بل إن هناك من عمل مع الملك عبدالعزيز من أبناء المملكة العربية السعودية الكثير، وليس هنا مكان ذكرهم.

وقذفت بهم فوق عتبات الدرج. وحدث أن قام بعض الأشخاص بعمل مرتجل قصدوا به إقامة سد أو حاجز بالقرب من قصر الملك في المعابدة، لكن أوشك ذلك العمل المرتجل أن يسبب كارثة، إذ علت مياه السيول مستوى الحاجز وغطت الطابق الأرضي من شقق وغرف الملك. كان لا بد من هدم ذلك الحاجز لتحويل مياه الأمطار الجارفة إلى مجراها في شوارع وسط المدينة.

كنت في تلك الفترة أقوم بزيارة إلى جدة، وبعد يومين عدت إلى مكة لأجد وكأن شخصاً ما قام بحرث شوارع العاصمة. ووجدت أيضاً أن الطريق الرئيس في أحياء المعابدة والمعلاة كان قد فرش بطبقة سميكة من الرمل الرطب. ولحسن الحظ لم تحدث أية وفيات بين الناس، لكن بعض البيوت انهارت وكانت جماعات من العمال تقوم على إصلاح الخراب والدمار.

والغريب في الموضوع أنه لم تهطل على جدة مثل تلك الأمطار بينما بلغت الأمطار الفعلية التي هطلت على مكة أقل من بوصة واحدة. ومن الواضح أن هذه العواصف المحلية هي ظاهرة اعتيادية في مناطق الحجاز، كما أنه في حين يكون أحد الأودية بمنزلة مجرى أمطار جارفة يكون وادٍ آخر مجاور له جافاً تاماً.

وخلال الأيام الأولى من إقامتي في مكة كنت بشكل طبيعي أكتشف ضواحيها، وتعرفت على مختلف وديانها التي تتشكل منها المدينة. وقمت أيضاً بزيارة أبرز معالمها التاريخية. لكن رتابة الحياة الاجتماعية عند الحضر جعلتني أنطلق بتفكيري إلى مجالات أوسع، كما أن زيارتي الأخيرة إلى جدة دلت بالبرهان القاطع أن هناك جماعات كانت ترتب وتعد حملة لاكتشاف مناطق الربع الخالي. اعتقدت في حينها بأن حملتهم ستكون مستحيلة، وعلى وجه التحديد أقول بأنه وصلني

خبر بأن كارل راثينز وهو باحث ألماني مشهور سبق له أن زار جدة مع رجل نمساوي يدعى هيرمان فون فيسمان، كان قد سبق له أن ذهب إلى اليمن وكان يرتب أموره للانطلاق من اليمن إلى الربع الخالي. وعلمنا أيضاً أن الروائي الفرنسي المشهور جوزيف كيسيل كان يفكر بفعل الشيء نفسه، علماً بأنه سبق له أن زار جدة ومنها توجه إلى الحبشة، وكذلك إلى اليمن بحثاً عن مادة علمية يدرجها في كتابه بعنوان «المهنة الرابحة».

لم أنس أبداً أن بيرترام توماس كان موجوداً في مسقط بناء على طلبي الذي طرحته عليه عندما كنت في عَمَّان قبل بضع سنوات. كانت مسقط أفضل نقطة يمكن الانطلاق منها نحو الرمال التي سيصعب اجتيازها.

طرح هذا الموضوع في إحدى جلسات الملك الخاصة عندما أعرب عبدالله السليمان عن وجهة نظره قائلاً: إنه يجب الإسراع في اكتشاف تلك المنطقة لتجنب ادعاء أية جهة أجنبية سيادتها على تلك المنطقة مستندة بذلك على أسبقيتها في التوغل فيها.

قال لنا الملك: إن ممثل ألمانيا في أديس أبابا قد قدم لزيارة صنعاء في محاولة للتوصل إلى اتفاقية معينة مع الإمام هناك.

على ما يبدو عومل أفراد تلك البعثة وكأنهم جواسيس كما يعامل معظم الزوار الذين يأتون إلى تلك البلاد. وعليه تم احتجازهم في دار الضيافة لمدة ستة أو سبعة أيام. انتهى ذلك الأمر بأن رفض الإمام الدخول في أي اتفاق ما لم تعترف الحكومة الألمانية بسيادته على إقليم عسير وعلى محمية عدن وعلى حضرموت.

طرح الإمام شروطاً مشابهة أثناء المفاوضات التي تمت بينه وبين الحكومة الفرنسية التي كان يمثلها روجر ميجريت في جدة الذي قام مؤخراً بزيارة لصنعاء.

أما بخصوص مطالبة الإمام بمنطقة عسير آثر ابن سعود أن ينظر إلى تلك المسألة بازدراء. وكان واثقاً من أن بإمكانه التعامل مع أي محاولة يمكن أن يقوم بها الإمام لتجاوز ذلك الادعاء أو لإثارة أية أعمال عدائية تحريضية. يبدو أن ابن سعود كان يعتقد بأن تعنت الإمام وتعامله مع الدول الأجنبية سيحول دون تنفيذ كل محاولاته الرامية إلى تشجيع الحملات الخاصة التي ستنطلق من أراضيه.

ولكن لعلم ابن سعود بتلهفي للحصول على فرصة لاكتشاف الربع الخالي أكد لي بأنه لم ينس وعده لي، وقال بأنه سيرتب أمر ذلك الموضوع خلال فترة راحته في الرياض.

تم ترتيب سفر الملك إلى الرياض بشكل مبدئي على أن يتم في منتصف شهر ديسمبر (كانون الأول) وبقي الأمر متوقفاً على تأمين وسائل النقل والأموال اللازمة لذلك. في تلك الأثناء سارت الأمور الروتينية في القصر وفي الحياة الاجتماعية في مكة على نحو مرض لكن مع شيء من الانفعال.

كنت أحاول ومنذ فترة أن أنتقل إلى منزل آخر، وكان أصدقائي قد اقترحوا علي بيتاً جميلاً مؤلفاً من طابق واحد في الريف له حديقة كبيرة. كان ذلك البيت في الطرف الآخر من منطقة جرول. وعملت بكل ما في وسعي وعلى مدى بضعة أسابيع من أجل الحصول على ذلك المنزل، وقد وعدني عبدالله السليمان بأن يقدم لي كل دعمه ونفوذه، كما أعرب عباس قطان وهو ابن قائم مقام محافظ مكة بالنيابة عن مساعدته لي. تجلت صعوبة الأمر في إنهاء الموضوع، لكن عندما عدت مع الملك بعد انقضاء رحلته إلى وادي الليمون التي دامت يومين قضيناها في

ضيافة أشراف تلك المنطقة علمت بأنه تم إنجاز كـافة الترتيبات اللازمة. وفي اليوم الثـاني من ديسـمبـر (كـانون أول) نقلت إلى منزلي الجـديد رقم ٩٣ في منطقـة جرول، وكان قدري أن أعـيش فيه لمدة ثماني سنوات. كان ذلك البـيت بعيداً عن بقية المنازل، تحيـط به حديقة مسورة بجدار عال، وكـان للحديقة طريق يؤدي إلى بوابة تطل على طريق فـرعي لا تسيـر معـه السيـارات إلا نادراً. أما من الناحـية الأمامية فكان أمام المنزل عدة درجات بينها ممر رئيس يؤدي إلى جناحين منفصلين، يوجد في خلف كل واحد منهما فناء واسع. كـان المطبخ وغرف الخدم في مؤخرة المنزل. وشيد ذلك المنزل عند سفح تل يقع عند أطرافه أمـاكن تاريخية معروفة في الوقت الحاضر باسم جـبل الترك، لكنها قديماً وعلى أيام الرسـول صلى الله عليه وسلم كانت تعرف باسم حي طوى وهو اسم لبئر مـياه صالحة للشرب في سطح ذلك التل. ولسوء الحظ أن ذلك البئـر كان في منطقة قريبـة من منزلي، لكن مياه البئر الموجود في منزلي والذي يبعد عشـرين ياردة عن البئر الأول كانت مالحة مثل ملوحة مياه البحر. علماً بأن البئرين كانا في الوطيدة البازلتية نفسها من التل الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٥٠٠ قدم عن المسـتوى العام لسطح الأرض. كان البيت يطل على مناظر جمـيلة خلابة، وكذلك على مـركز المدينة وعلى المسجـد الحرام الذي يقع مبـاشرة تحت إطلالة ذلك التل. كنت أقضي ساعـات طوال في التأمل بذلك المكان المشهـور، وكنت أدخن الغليون بسـلام، وأراقب كل معالم المدينة المقـدسة وتلالها العديدة. وفي إحدى تلك الحالات وعندما كنت مـستغرقاً في التأمل وكان الغليون في فمي فاجـأني أخو الملك بزيارة مفاجئة. كـان ذلك عبدالله الذي سأل عن مكان سكني الجديد وعرف مكانه. كـان التدخين في تلك الأيام أمراً محظوراً لكن عـبـدالله تظاهر بأنه لم ير الارتبـاك الذي بدا عليَّ، كـمـا تظاهر بأنه لم ير

الحركة اللاشعورية التي قمت بها عندما أخذت الغلّيون من فمي ووضعته في جيبي. كان قد قدم ليشاورني في صفقة سيارات من نوع فورد كانت شركتنا قد أخذت وكالتها.

كان سكان منزلي السابقين قد سمحوا للحديقة بأن تتحول إلى أحراج ولم يخطر على بالهم بأن الحديقة جديرة بثمن الماء اللازم لريها والذي كان يتم الحصول عليه من عين السيدة زبيدة. ومع ذلك عاشت بعض الأشجار والشجيرات الشائكة وقاومت إهمالهم للحديقة. وقد سارعت في زرع بعض الورود وأشجار الزينة والشجيرات الأخرى. نصحني بعض الناس بضخ ماء البئر وحفره لعمق آخر للحصول على المياه العذبة. وبالفعل قمت بذلك لكن التجربة أثبتت فشلها وذهبت المبالغ التي أنفقتها على ذلك العمل أدراج الرياح.

وعندما حان الوقت الذي يجب فيه أن أرافق الملك إلى الرياض كنت قد حققت بعض الإنجازات المهمة من تحسين المنزل. وبعد عودتي قضيت أشهراً طوالاً في تحويل تلك الحديقة التي كانت تكثر بها الأعشاب البرية إلى حديقة شبيهة بالجنة نالت إعجاب كل من قدم لزيارتي.

لم تكن الحدائق قد تطورت لتصبح من معالم مدينة جدة، علماً بأن دار البلدية التي سبق أن أشرت إليها كانت من إحدى مخلفات الأتراك الجديرة بالثناء والإطراء. لكن كان للبلدية الحق الكامل غير المقيد في الوصول إلى قناة المياه التي تمتد لتصل إلى نقطة تجمع المياه في منطقة الشريف عون الرفيق الذي سبق أن حكم مكة في ظل السيادة التركية عند بداية القرن الحالي. كان هذا الخزان المائي الضخم يروي مساحات واسعة من الأراضي التي تزرع بها الخضراوات. وكان شباب مكة

والحجاج يستحمون فيها أيام الصيف الحارة، كما كانوا يستحمون أيضاً في مياه بركة ماجد الواقعة في وادي المسفلة. أعتقد أن هاتين المنطقتين المركز الرئيس لدودة البلهارسيا. أما مياه بركة عون فقد نضبت بسبب احتياجات المناطق الأخرى الملحة للماء. ولم يبق إلا القليل من أشجار العنب لتذكر بالحديقة الخيرة التي كانت تمد الناس بالخضراوات.

كان أول شخص قدم لزيارتي في منزلي الجديد شخص يدعى صالح العنقري الذي كان دليلي في زيارتي الأولى إلى المسجد الحرام. تم الاقتراح بأن يكون صالح العنقري دليلي ومرشدي الديني في كل أعمالي وعباداتي التي كانت بالنسبة لي بمنزلة المتاهة. وفعلاً جلسنا مرة أو مرتين نتحادث في أمور الدين. لكني كنت مشغولاً في الأمور الدنيوية التي تتعلق بالقصر وشؤون الحكومة. وبدأ يتضح ببطء ويقين أنه لا بد أن أضحي بنفسي من أجل الإيفاء بالمتطلبات الدنيوية المفروضة على وقتي وتفكيري. كان لا بد للزيارة التي سأقوم بها إلى الرياض من أن تكسر طوق التعليمات الدينية التي رُتبت لأقوم بها والتي لم يتسن لي أن أعاود ممارستها. وهنا أشير إلى أن الممارسات الفعلية التي كانت تتم في القصر بخصوص القضايا ذات الصفة الدينية كانت بمنزلة دروس تربوية جيدة على غرار ما يمكن أن يتوقعه المرء من التعاليم الأخلاقية والممارسات الإسلامية.

ليس هناك شرعية أو صحة دينية للإصرار المتشدد النابع من تلك الممارسة على وجوب الدقة المطلقة، ووجوب صدق وسلامة في التوجه المتبع في قضايا الصلوات الخمس اليومية، كما لا توجد شرعية دينية بخصوص أهمية أن يحزر المرء وبشكل

دقيق موعد ظهور القمر الجديد في بداية كل شهر عربي[1]، أو أن يشاهده بالعين المجردة. ينطبق ذلك بشكل خاص على شهر رمضان وشوال وذي الحجة؛ وذلك لأن القرار المتعلق بالأمور الفلكية في تحديد الموعد الدقيق واستهلال البدر في أول الشهر أمر يفتقر إلى المدلول الديني بين الناس في الجزيرة العربية. علاوة على ذلك كان للملك اهتمامات شخصية في التقويم المتعلق بدائرة البروج وبظهور النجوم في مختلف الفصول. كل هذه الأمور والمعلومات مكنتني بعد استعمال الخرائط والبوصلة والتقويم الليلي في التدخل بطرح نصيحة مفيدة وخاصة في الأمور التي تحتمل الشك حول ظاهرة ذات مدلول ديني. وهكذا أصبحت -كما كانت عليه الحال- عالم فلكي معتبر -لكن دون أجر- أساعد بمعرفتي رجال المحكمة.

استمر تقويمهم الرسمي الذي نشرته الصحف المحلية في مكة على مدى ربع قرن، وكان يرتكز بالدرجة الأولى على المعطيات والمعلومات التي كنت أزودهم بها مع نهاية كل عام. حملتني معرفتي إلى حد أنه أصبح بإمكاني التكهن بكسوف الشمس وخسوف القمر، وهاتان حالتان يمكن مشاهدتهما في الجزيرة العربية من وقت إلى آخر. وكان ذلك العلم بمنزلة مخاطرة أو مجازفة في إمكانية أن ينظر إليَّ المتشددون في الدين على أنني إنسان يتسم بالوقاحة في افتراضاته. لكن هؤلاء الناس سرعان ما أدركوا أن التكهن بحدوث الخسوف والكسوف المقرر من قبل الخالق ليس أكثر صعوبة من التنبؤ ومعرفة الوقت الدقيق الذي تشرق فيه الشمس والذي هو على القدر نفسه، مقدر من الله عز وجل. إنه بالتالي أسهل بكثير من

(١) ما أشار إليه المؤلف هنا غير صحيح ولا يعني عدم اطلاعه على المصادر الشرعية، صحة ما ذكره والأدلة واضحة ولا تخفى على أي إنسان.

التكهن بالرؤية الفعلية للقمر الجديد، كما أنه أمر يعتمد كلياً على الغيب في قدرة الجنس البشري في رؤية الأشياء وعلى تدخل الغيوم في مجال تلك الرؤية.

لكن كان هناك ثمة مسألة حيرت الملك. حدث في العشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) أن طلب مني الملك أن أشرح له سبب شروق الشمس في ذلك اليوم قبل ثماني دقائق من شروقها في الرياض حسب التقويم المتبع، وظهورها قبل عشر دقائق من شروقها في المدينة! كان جوابي أن التوقيت كان بالطبع توقيت محلي يعتمد على مبدأ الصفر في غروب الشمس في كل مكان من الأماكن التي سأل عنها. ففي الرياض باعتبارها تقع على بعد يبلغ حوالي ٦٠٠ ميل إلى الشرق من المدينة التي تقع أيضاً على مسافة ٢٥٠ ميلاً إلى الشمال من مكة يكون الفرق النسبي في توقيت شروق الشمس في حد ذاته أمراً مرتبطاً بموضوع خط العرض وبعده عن خط الاستواء. كما ذكرت له أيضاً أنه في وقت الصيف ينعكس ذلك الوضع حيث تشرق الشمس في الرياض ولنقل في اليوم العشرين من شهر مايو (أيار) قبل عشر دقائق من شروقها في مكة وبعد أربع دقائق من شروقها في المدينة. عندها كان الملك مصيباً في افتراضه بأن الشمس لا بد أن تشرق في الرياض قبل أن تشرق في مكة والمدينة. لكن شككت في أنه فهم بالفعل الوضع النسبي لتلك الاختلافات. لكنه كان على دراية كافية بأن هناك ثمة فرق في التوقيت بين الرياض والمدن الأخرى في المناطق الغربية قد يصل إلى نصف ساعة تقريباً.

كان الجامع الرئيس في الرياض مشيداً للصلاة وموجهاً وجهة الغرب، لكن الناس بمن فيهم كبار العلماء كانوا مقتنعين بأن ذلك المسجد ليس موجهاً جهة مكة فحسب، بل موجه تماماً وجهة باب الكعبة في المسجد الحرام. كان المسجد الكبير

في الرياض في حقيقة الأمر موجه بالتمام والكمال وجهة المدينة، علماً بأن طرح مثل هذه الحقيقة كان يعد محض بدعة.

كان لدى الملك تصور ومفهوم غريب فيما يتعلق بمحاور الكرة الأرضية التي يمتد فيها خطي الشمال والجنوب من الجدي وحتى سهيل، بينما يمتد خط الشرق والغرب على طول برج الثريا وبشكل مستمر من شروق الشمس حتى غروبها. لكن اهتمام الملك المتواصل بالفصول ومسارات النجوم دل على سمة شخصية من الإيثار تركزت في رجل تنامت شخصيته في خضم تصارع شديد بين الصعوبات الاقتصادية والسياسية التي شهدتها منطقته التي كثرت فيها الاضطرابات والتي تفتقر إلى كافة مصادر الثروات الطبيعية. لم ينجح الملك في ترويض منطقته فحسب، بل نجح في وضعها على عتبة مستقبل مزدهر لم يحلم به إنسان من قبل.

ومن خلال استعدادي للسفر إلى الرياض أمنت لنفسي سيارة من طراز فورد وذلك بعد أن خرجت بها للنزهة مع الملك لثلاث أو أربع مرات، وبالفعل أعرب الملك عن إعجابه بها. تحادثنا أثناء التجوال بالسيارة عن السيارات بشكل عام وعن استهلاكها للوقود بشكل خاص وذلك في إشارات واضحة إلى الفواتير المكلفة التي كان سائقو السيارات الملكية يقدمونها لتحسم من حساب الملك. وقلت بأن سيارتي تستهلك في كل ١٢٠ كليومتر أربعة جالونات من الوقود، أي بمعدل ١٩ ميلاً في الجالون الواحد. لكن يوسف ياسين تحدى هذه المعلومات وقال: إنه لا يمكن للسيارة أن تسير بأربعة جالونات مسافة تزيد عن ١٠٠ كيلومتر. وعليه اتفقنا على رهان على مسمع من الملك وقلت بأن تلك السيارة في الحد الأدنى تقطع ١١٠ كيلومتر بذلك القدر من الوقود. وقال ياسين بأنه إذ خسر الرهان سيشتري لي عشر صفائح من الوقود عن كل مئة وعشرة كيلومترات، وسيشتري لي صفيحة

عن كل كيلومتر زيادة عن ذلك. وطلب مني أن أشتري له -إذا خسرت الرهان- صفيحة عن كل كيلومتر دون ذلك الرقم. واتفقنا على أن نتوجه بالسيارة إلى جدة لنتأكد من إدعاء كل واحد منا. لكن حدثت بعض الأسباب التي أدت إلى إرجاء ذلك المشوار. على أية حال شجعتني هذه الحادثة على أن أراقب استهلاك سيارتي للوقود. فكنت أقودها بنفسي وأحتفظ بالمفاتيح في جيبي في حال عدم استعمالها. صدمت عندما أدركت بأن سيارتي في إحدى المرات استهلكت صفيحة من البنزين عند قطع تسعة وتسعين كليومتراً ونصف الكيلومتر، وعليه لم يكن بإمكاني أن أعدّ ذلك مرضياً، كما لم يكن بإمكاني تفسير ذلك. وحدث في السابع والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) أن وضعت في خزان الوقود صفيحتين من البنزين استعداداً للمرحلة التي كنت أنوي القيام بها إلى وادي الليمون مع موكب سيارات الملك.

وفي عشية اليوم الثلاثين عندما عدت من القصر لاحظت أن العداد كان يشير إلى الرقم ٩٢٤ مقارنه بالرقم ٧٢٧ ونصف الذي كان عليه العداد عندما ملأت السيارة بصفيحتين من البنزين، إذ كان لا يزال في الخزان بعض الوقود. بدى الأمر وكأنني قد فزت في الرهان لكن في صباح اليوم التالي قرأت على العداد الرقم ٩٧٠ علماً بأن مؤشر البنزين في السيارة دل على وجود الكمية نفسها التي كانت موجودة في الليلة السابقة. راودني شك بأن أحد الصبية الأشرار كان قد لعب بالعداد. وعندما استفسرت من السائق عن الموضوع كان جوابه لي ببراءة علي أن أنسى الموضوع وأن السيارة لم تُستعمل في الليلة السابقة باعتبار أن المفاتيح كانت في جيبي طيلة الوقت. وأثناء الغداء في اليوم التالي ذكرت الحادثة إلى الملك عندها أعرب عن قناعته بأنه لا بد وأن يكون السائق قد استعمل السيارة. بلغ

الفرق بين الرقمين ٤٦ كيلومتراً وهو نفس طول المسافة التي تقطعها السيارة على طريق جدة في العودة إلى منطقة الشميسي وهي المنطقة التي عرف عنها بأنها ملتقى السائقين الذين يتجمعون بها لأسباب مختلفة. أبدى الملك اهتمامه في تقصي حقيقة المسألة وطلب من المحافظ الذي كان يتناول طعام الغداء معنا أن يرافقني في طريق العودة إلى منزلي وأن يتحدث مع السائق ومع خادمي. لم تجد جهود المحافظ في نزع اعترافات معينة من هؤلاء الأشخاص. وبعد أن غادر قلت للسائق والخادم بأنني أعدهما مسؤولين عن ذلك الحدث، وقلت بأنني سأسلمهما إلى رجال الشرطة الذين ربما تكون لديهم وسائل أكثر فعالية في استخلاص الحقائق. وبفعل هذا التهديد انهارت أعصاب الخادم واعترف بأن السائق أخذ السيارة ليلاً وعاد بها في الصباح. علاوة على ذلك شهد صبي يعمل في دكان مقابل لمنزلي بعد أن أقسم اليمين، بأنه شاهد السائق يدفع السيارة إلى أن دار المحرك ومن ثم قفز بداخلها وانطلق بها. وبناء على مكالمة هاتفية، وصل مفتش الشرطة في الوقت الذي كان فيه الصبي يدلي بشهادته. عندها فر السائق هارباً. أخذ مفتش الشرطة الخادم إلى الحجز بصفته طرفاً في الجريمة كما أخذ الصبي باعتباره شاهداً على الواقعة. وعند المساء تم إطلاق سراحهما وكانت الشرطة قد عثرت على السائق وألقت القبض عليه. ولسبب ما تم إطلاق سراحه في صباح اليوم التالي، وقدم إلى منزلي ليجمع حاجاته ويأخذ راتبه. أعطيته حاجاته وقلت له بأن عليه أن يتقدم للشرطة بطلب من أجل الحصول على راتبه وبدأت في البحث عن سائق آخر ليحل محله. كان ذلك الرجل هو سادس سائق يعمل عندي على مدى أقل من أربعة أشهر! إنني أصاب بالرعشة عندما أفكر بعدد هؤلاء الأوغاد الذين عملوا عندي على مدى خمسة وعشرين عاماً ! إنهم يشكلون

مشكلة خطيرة لم تنجح الحكومة السعودية في معـالجتها بشكل فاعل. كما أنها لن تنجح في حلها طالما أن الرسميين في الحكومـة والمسؤولين عن إصدار رخص قيادة السيـارات ينظرون إلى مهـمتهم على أنهـا مجرد وسـيلة لزيادة دخلهم عن طريق تأمين الرخص لإرضاء مصالح هؤلاء.

وبعد ذلك مرت الأيام بسلام ودون أحداث مزعجة، واستمر الوضع على ذلك الحال حتى يوم العشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) وهو الموعد المحدد لرحيل الملك إلى الرياض. غبنا عن مكة مـدة شهر واحد، وعدنا إليهـا في العشرين من ديسمبر (كانون الأول) لنباشر في اليـوم التالي صيام أول يوم من أيام شهر رمضان المبارك.